هو أمر يؤسف له. ونقول «يؤسف له»، فقط لأن من يسمح للعدو بالتطاول عليه، خلال فترة طويلة، ينبغي ان يتوقع المزيد من صلفه. ولكن التغاضي عن تطاول الارهابيين اولئك على الشعب الفلسطيني بأسره، وجماهيره المناضلة، هو أمر لا يجوز السماح به. وهذا ما يجري حالياً في تعامل الاسرائيليين مع الانتفاضة الشعبية المستعرة في فلسطين، منذ نحو نصف سنة.

ولا يتسع المجال، هنا، للبحث في شؤون الانتفاضة وشجونها وانعكاساتها المستقبلية، على ما لذلك من أهمية ـ فهذا موضوع آخر يفترض ان يستوفي حقه في مناسبة أخرى. ولكن ناحية واحدة في هذا الصراع المتجدد، والمستعر، تلفت النظر، ولا يجوز السكوت عليها. أو ينبغي، على الاقل، التحذير منها، وهي لجوء سلطات الاحتلال الاسرائيلي الى تفريق التظاهرات السلمية باطلاق الرصاص على المتظاهرين، في اجراء تلجأ اليه، عادة، الدول الاستعمارية والانظمة الفاشية. وفي الامتناع عن الرد على سياسة اسرائيل واجراءاتها بالمثل خطأ كبير.

ربما كانت هنالك حكمة، مع بداية الانتفاضة، في التقيد بالاساليب الجماهيرية «السلمية» في ادارة الصراع، والامتناع عن اللجوء الى استعمال العنف، على ما يمكن ان يؤدي اليه ذلك من كسب التأييد والتعاطف الدوليين. الا ان هذه «اللعبة» لا يمكن ان تستمر طويلاً، ويبدو انها استنفدت مداها. ولا نريد القول، بالطبع، ان النضال الشعبي المستمر غير مجد، بل، على العكس من ذلك، ينبغي رفد هذا النضال ودعمه بكفاح مسلح، ولو على الاقل من قبيل الرد على الاستفزازات الاسرائيلية.

ورداً على الدعوة الى مواكبة الانتفاضة الشعبية في المناطق الفلسطينية المحتلة بكفاح مسلح، ولو على نار هادئة، يسمع المرء، هنا وهناك، ادعاءات مختلفة ـ حتى من قبل الدعاة الى «الكفاح المسلح» ـ تشير كلها، ويا للعجب، الى ضرورة الامتناع (كذا !) عن القيام بذلك، لكي لا تعطى اسرائيل مبرراً «للبطش بشعبنا». ولعله ليس من باب التجني الرد على هذه الادعاءات بالقول انها ليست الا من قبيل ذر الرماد في العيون، بل انها تنمّ عن خطأ كبير في فهم طبيعة العدو. وانه امر يؤسف له ان تصدر مثل هذه التقويمات عن دوائر المقاومة، التي يفترض انها اكتسبت خبرة ما في صراعها الطويل مع العدو، وتستطيع بالتالي «فهمه».

ولا حاجة للتنويه بأن الواقع، باحداثه المختلفة، منذ نشوب الانتفاضة وحتى اليوم، قد أظهر بطلان هذه الادعاءات. فاسرائيل «تبطش بشعبنا»، مع كفاح مسلح أو بدونه. بل انه يبدو ان ليس هنالك بطش أكثر مما عهدته المناطق المحتلة حتى الآن: اطلاق النار على المتظاهرين العزل، والنفي، والابعاد، والاعتقالات، وهدم البيوت، ومحاصرة التجمعات السكنية، وفرض منع التجول، وقطع المؤن، ومحاولات تجويع السكان، الخ، الخ. ولا يبدو ان الرد على العنف بالمثل سيزيد من حدة هذا البطش؛ بل على العكس من ذلك، يبدو ان الرد الرادع على حملات القمع الاسرائيلية قد يساهم في وضع حد لها.

ربما ليس من الممكن كسر العجرفة الاسرائيلية تجاه الفلسطينيين، على ما تشمل من التنكر لحقوقهم والاستخفاف بهم، بسهولة أو خلال فترة قصيرة. وربما كان من الصعب الحصول على نتائج ملموسة، على ارضية الاوضاع الدولية والعربية الراهنة، في المستقبل المنظور. لكن بالامكان، على الاقل، البدء في السير على الطريق الحقيقية لدحر الاحتلال ـ ولو من قبيل «افهام» المحتلين